

Sarah Graham Brown, *Palestinians and Their Society 1880-1946* :  
A Photographic Essay, London: Quartet Books, 1980

## (الفلسطينيون ومجتمعهم)

«العلاقة بين ما نرى وبين ما نعلم، ليست محسومة إطلاقاً ولن تحسم أبداً».

بهذا المقتطف من أحد كتب الفنان والناقد الفني والروائي البريطاني الشهير، جون بيرغر، تفتتح سارة غراهام براون مقالتها المصورة عن الفلسطينيين في الفترة الممتدة ما بين عامي: ١٨٨٠ و١٩٤٦. ولا شك بأن توتر العلاقة بين الشواهد المرئية الراهنة والمعرفة المسبقة، ذلك التوتر الذي يومية له هذا، المقتطف، يشكل إحدى المشاكل الرئيسية التي تواجه أية محاولة للتأريخ بالصور. ويفعل هذا التوتر فعله على مستويات ثلاثة: فهناك أولاً، ما يسقطه القارئ لا المشاهد على التأريخ المصور الذي بين يديه والزاوية التي ينظر منها إليه؛ وهناك، ثانياً، ما يراه المؤلف لا المؤلف في مجموعة الصور التي يبدأ بها وما ينتقيه منها وما يهمله، والتفسيرات والتأويلات التي يعطيها لتلك الصور التي يستخدمها؛ وهناك، ثالثاً، طريقة مقارنة المصورين المختلفين في عهد مضى لموضوعات صورهم، وتقولب هذه الطريقة بفعل التيارات الثقافية التي كانت سائدة في ذلك العهد.

على أنه إذا كان يمكن القول ان التوتر بين الشواهد والأدلة من جهة والمعرفة السائدة من جهة أخرى يحكم كل محاولة للتأريخ، فإن للشواهد المصورة مشكلات خاصة بها تقول المؤلف إنها «تترواح من اختيارية المصور (لموضوعاته) مروراً بالطريقة التي أثرت بها زاوية الشمس على ما دخل الصورة، إلى القرارات التي يتخذها المصور بشأن ما ينبغي إبرازه في الصورة النهائية لتركيز الانتباه على أحد مناحي المشهد، وفي الوقت ذاته إهمال منحي آخر، إضافةً إلى أن أساليب الطباعة تؤثر على مزاج الصورة».

وبما أن غالبية الصور التي يستخدمها كتاب كالذي نحن بصددده، لا بد بالضرورة من أن تكون صوراً التقطها أوروبيون لأنفسهم أو لجمهور أوروبي، فإن ذلك يخلق على الفور جملة من المشكلات، يمكن إدراجها تحت مشكلة أعم هي مشكلة تصوير مشاهد غير مالوفة ومختلفة، من ثقافة أخرى وتمثيلها. ذلك انه إذا «كانت الالفة لا تؤدي دوماً إلى التفهم، فلا شك أن انعدام الالفة — أي عدم القدرة على فهم أهمية أفعال أو إشارات من ثقافة أخرى — يجعل من الصعب رؤية هذه الأفعال والإشارات على أنها ذات معنى أو عقلانية. فالغرابية قد تخلب أو قد تستدعي عواطف أخرى كـ (العداء، الخوف، الاحتقار، التكرم). والكاميرا تزود التقنية اللازمة لتسجيل الشيء أو الشخص فحسب، بل وأيضاً رؤية المصور له على أنه غريب وشاذ».

إضافة إلى ذلك، فإن علاقة السلطة التي كانت، خلال الفترة التي يعالجها الكتاب، تربط الأوروبين